الفصل الثاني:
إبستمولوجيا الأدب ﴿الأصل والأساس﴾

- ما هو أصل الأدب ؟
- الأدب هو قوس قزح.
- مكونات الأدب.

obeikandl.com

obeikandl.com

ما هو أصل الأدب ؟

كما ذكرنا من قبل، لولا وجود الأدب لما ظهر النقد الأدبي، ولما ظهرت النظرية الأدبية. فما النقد الأدبي والنظرية الأدبية إلا انعكاس ونتيجة للأدب. وإذا ما أردنا أن نحسن فهم النقد الأدبي والنظرية الأدبية تحديدًا، فإنه يتوجب علينا الاستغراق والخوض والتحري وبعمق في أصل الأدب أو الظاهرة الأدبية، والوصول إلى جذورها الحقيقية.. كما قرأنا في الفصل الأول، فإن تعريفي النقد الأدبي والنظرية الأدبية، متداخلان إلى حد بعيد، ويتطابقان سويًا في مهمة واحدة ومشتركة، ألا وهي تفسير وتحليل الأدب أو الظاهرة الأدبية.

بما أن مهمة كلًا من الناقد الأدبي والمطبق للنظرية الأدبية، هي تفسير وتحليل النص الأدبي، فمن المؤكد أن مهمة التفسير والتحليل تلك لن تكون ناجعة وموفقة بشكل كامل، ما دام ذلك الناقد الأدبي أو المطبق للنظرية الأدبية غير ملم بأصول الأدب، وأساساته التي بني عليها، ومواده التي تكون منها.

بما أن الأدب هو الأساس، وهو المدماك الأول الذي بني فوقه النقد الأدبي والنظرية الأدبية، فبذلك يكون أصل الأدب، هو ذات الأصل والأساس لكل من النقد الأدبي والنظرية الأدبية. وإذا ما أراد الفلاسفة والمفكرين والنقاد أن يهونوا على أنفسهم عناء مهمة فهم الأدب أو الظاهرة الأدبية بكافة تجلياتها وتفريعاتها وظواهرها وأجناسها وأنواعها، فإنه يتوجب عليهم الاجتهاد أولًا في التعرف جيدًا على أصول الأدب وأساساته ومكوناته التي جاء من خلالها. فالعارف لأصل الأدب وأساسه، لا يستعص عليه مطلقًا فهم أي مسألة أو ظاهرة أدبية مهما كانت تتضمن من تعقيدات. شأنه في ذلك شأن الطبيب الماهر، الملم جيدًا بأصول الأعضاء البشرية، ووظائفها، وحالات قوتها وضعفها، فطبيب كهذا لا يستعص عليه تشخيص أو فهم حالة مرضية معينة، وبالتالي الاجتهاد في علاجها.

لا أقصد بأصل الأدب، الأصل التاريخي أو البداية التاريخية للأدب، أي لا أقصد الأدب السومري أو ملحمة جلجامش كما جاء في الفصل الأول، ولكن بمصطلح (أصل الأدب) أقصد، الأصل التكويني للأدب، أي مكوناته، والمواد التي نشأ منها وتركب بفعلها.

من الطبيعي أن يعتقد الجميع أن المقصود بأصل الأدب، هو الأصل التاريخي أو البداية التاريخية للأدب. لأن غالبية الباحثين والدارسين ركزوا على التأصيل التاريخي للأدب، وفي المقابل أهملوا التأصيل المادي والمعرفي والمصدري للأدب.

طبيعة مكونات الأدب والمواد التي يتشكل منها، لا تتأثر لا من قريب ولا من بعيد بدوران عجلة التاريخ، فلا تتغير البتة بتغير الزمن من عصر لآخر، لأن مكونات الأدب التقليدية والمواد التي يتشكل منها دائمًا، هي ذات المواد والمكونات التي تتألف منها سائر الأعمال الأدبية، وفي شتى العصور، أي سواء في الماضي السحيق، أو الحاضر المعاصر، أو المستقبل البعيد.

أي أن المواد والمكونات التي تشكلت منها ملحمة جلجامش وكذلك ملحمتي الإلياذة والأوديسة، هي نفسها ذات المواد والمكونات التي تشكلت منها مسرحيات إبسن **Ibsen**، وروايات ماركيز **Marquez**، وأشعار أدونيس. وحتى الأعمال الأدبية التي ستكتبها الأجيال القادمة بعد مئة أو مائتي عام، سوف تكون مركبة ومتشكلة من ذات المواد والمكونات.

بما أن مكونات الأدب التي تتشكل منها الأعمال الأدبية المختلفة، تبقى كما هي ولا تتغير في شتى الأزمان والعصور، إذًا فهي ثابتة وخالدة لا تتغير، تمامًا كما الألوان السبعة التي يتكون منها قوس قزح، والتي بحكم قوانين الطبيعة لا يمكن لها أن تتغير يومًا ما. إنه ولا شك تشابه رائع ذلك الذي يجمع بين أصل الأدب وقوس قزح، لذا دعونا نتعرف على المزيد من الوجوه الأخرى لذلك التشابه الرائع الذي يجمعهما.

الأدب هو قوس قزح

عندما أردت أن أخوض وأبحث في أصل الأدب والمواد التي يتركب منها، وجدت الأدب في مخيلتي يبدو أشبه ما يكون بقوس قزح، متألق وبهيج الألوان.

قوس قزح، أو ظاهرة قوس قزح، تلك الظاهرة الطبيعية الرائعة تتألف من ألوان عدة، وبالتالي مكونات عدة، ومواد عدة، وذلك إذا ما اعتبرنا الألوان هي بمثابة المكونات والمواد التي تتألف منها بانوراما ذلك القوس الرائع.

ظاهرة قوس قزح هي رمز وإيحاء للتجانس والتوافق بين المكونات والألوان المتعددة، وجمال ذلك القوس، لم يأتِ إلا بفعل ذلك التجانس والتوافق بين مكوناته وألوانه، وإلا كيف سيكون منظر قوس قزح لو كان متألفًا من لون واحد. بالطبع لن يكون حينها بهذا البهاء والتألق الأخاذ.

بعد دراستي وبحثي المستفيضين في أصل الأدب، وصياغتي لرؤيتي الشخصية في ذلك الاتجاه، أرسيت قواعد نظرية (الأدب هو قوس قزح)، كي تعبر عن رأيي في تلك القضية الهامة. وفي الحقيقة لم أجد كما أسلفت، أي شيء يعبر عن وصف حالة أصل الأدب، أفضل من ظاهرة ومنظر قوس قزح.

إذا ما عقدنا مقارنة بين الأدب وقوس قزح، ربما نجد مسألة واحدة يختلف فيها الأدب عن القوس، وهي أن الأدب من صنع الإنسان وبنات أفكاره، ومن نتاج عقله وتأملاته. أما قوس قزح فهو ظاهرة طبيعية بيئية، من صنع خالق الأكوان وتدبيره تبارك وتعالى.

أما في بقية المسائل فهناك تطابق تام بين هاتين الظاهرتين المثيرتين للإعجاب. فكلاهما ظاهرتين إبداعيتين، قوس قزح كما قلنا من إبداع رب العالمين وعجائب قدرته، والأدب من إبداعات البشر. قوس قزح يتكون من ألوان تتجمع في إطار من التجانس والتناغم، وكذلك الأدب يتكون من ألوان تتجمع في إطار من التجانس والتناغم.

النصوص الأدبية غالبًا ما تكون مطبوعة بالحبر الأسود، وبالتالي فليس بمقدور القارئ أو المتذوق أن يرى ألوانها بوضوح واقعي وحقيقي، كرؤيته لألوان قوس قزح المتألقة في السماء، ولكن يتعين على ذلك القارئ أو المتذوق أن يتأمل في معنى ودلالات وتجليات النصوص الأدبية، كي يدرك ألوانها البهية بعقله وتأمله وليس بعينه المجردة، التي يرى بها الحبر الأسود للنصوص، والظواهر الطبيعية المختلفة.

بدون التأمل مليًا في كل لون من ألوان قوس قزح على حدة، وبدون استقصاء الحقائق حول المسببات الفيزيائية والكيميائية لهذه الظاهرة الطبيعية، لن يستطيع المتأمل معرفة القيمة الجمالية والتكوينية لهذا القوس. وكذلك بدون التأمل في عناصر تركيب الأدب ومواد بنائه، لن يستطيع المتأمل أو الدارس معرفة القيمة الجمالية والتكوينية للأدب.

وللتعرف على ماهية نظرية أصل الأدب، أو كما أسميها، نظرية (الأدب هو قوس قزح)، علينا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال الهام:

- ما هي مكونات الأدب ؟.

مكونات الأدب

الأدب ليس كيانًا علميًا أو معرفيًا قائمًا بذاته من حيث التأصيل والتأسيس الذاتي. أي أنه ليس كما الأحياء، أو الفيزياء، أو الجغرافيا، أو الاقتصاد، وغير ذلك. فعلم الأحياء مثلًا له أسس علمية خاصة به كعلم، وتقتصر عليه فقط، بحيث تضمن له هويته الخاصة، والمختلفة عن غيره من العلوم والمعارف. وحتى الفيزياء، أو الجغرافيا، أو الاقتصاد، جميع هذه العلوم لها أساساتها العلمية وأصولها الخاصة، والتي تكفل لها التفرد عن غيرها من العلوم، فتظلل حدود كياناتها المستقلة، وتحدد معالم الهوية الخاصة بكل منها.

خلاصة القول أن أساسات بنيان الأدب وأصوله التي تكون وتشكل من خلالها، لا تمكن له من حيث (الأسس والأصول) من التفرد بشخصية أو هوية خاصة به، بحيث تكون متميزة وفارقة عن غيره من العلوم والمعارف.

نفهم من ذلك أن علم الفيزياء مثلًا، له تقريبًا أصول وأساسات صافية ونقية، من كونها (فيزيائية) صرفة بالأساس، وكذلك علم الاقتصاد، له تقريبًا أصول وأساسات واضحة المعالم، من كونها (اقتصادية) بحتة بالأساس[1]. لكن الأدب ليس له أصول وأساسات صافية ونقية، بل أفضل ما توصف به أصول وأساسات الأدب، هو أنها هجينة ومخلطة، أي أنها ليست من صنف أو نوع واحد من العلوم والمعارف، ولا يغلب عليها صنف أو نوع واحد من العلوم والمعارف، بل هي من أصناف وأنواع شتى.

والفرق هنا يبدو واضحًا، فأساسات وأصول الفيزياء واضحة المعالم وشبه نقية من الشوائب، أي أنها تقريبًا أو إلى حد بعيد، غير مختلطة بشوائب من العلوم الأخرى (على الأقل في مرحلة الأصل والأساس)، وكذلك علم الاقتصاد، ونحوهما من علوم أخرى[2].

أما الأدب، فأساساته وأصوله التكوينية تفتقد مطلقًا إلى الانسجام والصفاء والنقاء، وهي عبارة عن خليط معقد من شتى أنواع العلوم والمعارف.

نظرًا لتشابك العلوم والمعارف وترابطها بشكل معقد، علينا أن نقر أنه قلما يوجد هناك علم صافي الأصل والأساس تمامًا، وبشكل مطلق. فلا بد أن يتأثر علم ما بغيره من العلوم، سواء في مرحلة أصوله وأساساته أو حتى في مرحلة نتائجه ومخرجاته. صحيح أن الكثير من العلوم تستعير

(1) أصول وأساسات علمي الفيزياء والاقتصاد، تتأثران كثيرًا بعلم الرياضيات، لكن بالرغم من ذلك يظل لدينا منهج فيزيائي مستقل وواضح المعالم، ومنهج اقتصادي مستقل أيضًا وواضح المعالم. وبالتالي فلكل من الفيزياء والاقتصاد، أصول وأسس متجانسة وواضحة المعالم.

(2) تختلف وتتفاوت درجة نقاء وصفاء أساسات وأصول العلوم، من علم إلى آخر. فعلى سبيل المثال، ثمة فرق وتباين بين علم أصوله وأساساته شديدة النقاء والصفاء كالرياضيات، وعلم آخر أصوله وأساساته شديدة التنوع والاختلاف، كالأنثروبولوجيا أو علم الاجتماع.

من غيرها بعض الإسهامات، وفي المقابل تعير، لكن في النهاية يبقى لهذه العلوم أطر تحفظ لها هويتها الخاصة والمميزة لها، أي أن الهياكل الأساسية لأصول هكذا علوم تكون أقرب إلى التماسك والانسجام، وتكون أبعد ولو بشكل متفاوت عن الخلط والامتزاج بباقي العلوم.

لكن في حالة الأدب، كما أسلفنا الأمر يختلف تمامًا، فمكونات الأدب التي يتأسس منها تخلو تمامًا من المركزية، وتبدو جميعها كفتات متناثر وقطع مبعثرة، فأصول الأدب كما ذكرنا ليس لها هوية خاصة بها، لتكون فارقة[1] وتميزها عن البقية، بل أصول الأدب وأساساته التكوينية كما قلنا جاءت من كل حدب وصوب، أي من كل العلوم والمعارف تقريبًا عدا الأدب نفسه، أي أن الأدب لم يسهم مطلقًا في تكوين وخلق أساساته وأصوله ولو بقيد أنملة !!.

إذا ما أجرينا عملية تشريح لجسد الأدب، وفككنا مكوناته، وتتبعنا مصادره وأصوله، فإننا سوف نجد أن الأدب قد جاء بأصوله وأساساته من بقية العلوم والمعارف. أي أن أصول الأدب وأساسات بنائه مشتقة من العلوم الطبيعية، والإنسانيات، والماورائيات، وغير ذلك.

أي أن أصول الأدب وأساساته التي يتكون منها، هي عبارة عن مكونات ومعلومات ودلالات تاريخية، وسياسية، ونفسية، واجتماعية، وجغرافية، وبيولوجية، وانثروبولوجية، وجمالية، وغير ذلك، وبما أن الأدب هو نشاط بشري وكذلك تعبير عن التجارب الإنسانية، نجد أثر وإسهام الإنسانيات في أصول الأدب وأساساته أكبر من أثر وإسهام العلوم الطبيعية، وهذا ما يبدو بشكل ملحوظ وواضح.

لذلك لو اتخذنا قطعة عشوائية من نص أدبي ما، وتأملنا جيدًا في تلك القطعة، فإننا سوف نجدها تحتوي على مفردات ومعلومات ودلالات وإيحاءات سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وانثروبولوجية، ولغوية، وبيئية، وميثولوجية، وفلسفية، وغيرها.

---

(1) الأدب هو الأسلوب، الذي من خلاله يتم تجميع وصياغة وصقل الإسهامات، التي تتوافد من مختلف العلوم والمعارف، لتشكل في نهاية المطاف النص الأدبي، أي أن الأدب يساهم في بناء نفسه هندسيًا، لكنه لا يساهم في بناء وصب اللبنات، التي بدونها لا تقوم عملية البناء من حيث الأساس.

obeikandi.com

وهذه النظرية[٢] تنطبق على شتى أنواع الأدب، سواء النثر أو الشعر، سواء المسرحية أو الرواية، أو حتى القصة.

لذلك أقترح على من أراد التثبت من صحة هذه النظرية وصدقها، أن يتخذ نصوص أدبية متنوعة لغرض الدراسة، على أن يكون كل نص من هذه النصوص ممثلًا لجنسًا أو نوعًا أدبيًا مختلفًا. أي عليه أن يتخذ ويدرس نص أدبي، تارة من رواية، وتارة من قصيدة، وتارة من مسرحية، وتارة أخرى من قصة أو سيرة، وهكذا.

بلا شك، إن الدارس أو المتأمل في تلك النصوص، سيخلص إلى نتيجة واحدة مفادها أن هذه النظرية تنطبق على سائر الأنواع والأجناس الأدبية. وأن الأدب بشتى ضروبه وأنواعه، يستعير مواد البناء التي تشيد بها نصوصه، من العلوم والمعارف الأخرى. أي أن الأدب لا يعتمد على ذاته في بناء نفسه، بل يعتمد كليًا على إسهامات الآخرين ومنحهم ومشاركاتهم.

مشاركات العلوم والمعارف المختلفة في تكوين النص الأدبي لا تظهر بوضوح في بنية النص، أي في تواجده بالحبر الأسود على ظهر الصفحات البيضاء. فتلك الإسهامات والمشاركات تكون ممزوجة وذائبة تمامًا في ثنايا النسيج اللغوي للنص. فبدون تحليل وتأمل جيدين، وبدون تفكيك واستكشاف لإيحاءات ومكنونات النص، لن يستطيع القارئ أن يحدد ما للتاريخ، وما للسياسة، وما للاجتماع، وما للفلسفة، وما للاقتصاد من نفوذ وإسهامات، في تكوين النص الأدبي.

طبعًا لا يستطيع أحد أن يتخيل النص الأدبي وكأنه معلومات فجة متناثرة، أتت من إسهامات العلوم والمعارف، بدون وجود إطار يجمعها ببعضها البعض ويضمها في قالب واحد.

لمزيد من التوضيح، نقول أن النص الأدبي يتكون دائمًا وفي كل الحالات من عنصرين لا ثالث لهما. أما العنصر الأول فهو (المعلومات)، والعنصر الثاني هو (اللغة):

(2) من هنا وحتى نهاية الفصل، المقصود هو نظرية (الأدب هو قوس قزح).

(١) **المعلومات:** وهي ما للعلوم والمعارف المختلفة من إسهامات ومشاركات في بناء وتشييد النص الأدبي، وقد تحدثنا كثيرًا عن هذه المسألة، في إطار حديثنا المستفيض عن أصل الأدب وأساساته التي يتكون من خلالها.

(٢) **اللغة**: وهي الأداة التي تتحول بفعلها المعلومات الخام والمختلفة الأنواع والمصادر، إلى نص أدبي جمالي إبداعي، سائغ للقراءة والفهم والتمتع. أي أن اللغة هي التي تحول أصول الأدب ومواده الخام التي تأتي من مختلف العلوم والمعارف، إلى نص أدبي مترابط ومتجانس، جاهز للقراءة والتذوق. ولعل حروف الجر وعلامات الترقيم، هما أفضل ما يعبران عن روح وظيفة اللغة كما نقصد بها هاهنا، فباقي عناصر اللغة كالأسماء والأفعال والصفات، قد تكون في الكثير من الأحيان بحد ذاتها معلومات، أكثر منها لغة بالمعنى الذي ننشده ها هنا للغة.

الإسهامات المختلفة للعلوم والمعارف في بناء وتأسيس الأدب، لا تظهر بشكل سهل وساذج داخل البنية التكوينية للنص الأدبي، أي ليس من السهولة بمكان العثور عليها والتوقف عندها من خلال مجرد قراءة عابرة للنص الأدبي، وبالتالي هكذا إسهامات أو معلومات تحتاج من المتتبع لها، أن يخصص لها ما هو أعمق من القراءة العابرة أو السطحية للنص، وأعني بذلك قراءة النقد الدقيق، والتمحيص، والتغلغل في أعماق نسيج النص، واستنطاق مكنوناته.

كما أسلفنا، يتعين على الدارس أو الناقد أن يرصد إسهامات العلوم والمعارف المختلفة داخل بنية النص الأدبي، وذلك من خلال إتباعه منهج تحليلي دقيق عند قراءته واستكشافه ذلك النص. لأن هذه الإسهامات قد تختلط ببعضها البعض في عدة مواضع داخل النص، وبالتالي يتعسر على الدارس أو الناقد، الفصل بين هذه الإسهامات وفرزها، وبالتالي يتعذر عليه تصنيفها تحت أي فرع من فروع العلوم والمعارف. كما أن هذه الإسهامات ربما تتماهى وتتداخل مع المكونات الأخرى للنص، وتذوب وتنصهر داخل السياق اللغوي للنص، بشكل يجعل مهمة تمييزها وتصنيفها أمرًا مشتتًا بين خيارين، أهي من إسهامات العلوم والمعارف في بناء النص، أم هي من الضروريات اللغوية التي لا تتوثق عرى النص إلا بها.

المتتبع والمراقب لإسهامات العلوم والمعارف في بنية النص الأدبي، بالتأكيد لن يجدها كلها ذات نفس الشكل أو الهيئة. بل سيجد تلك الإسهامات تأخذ مواقعها داخل بنية النص الأدبي، بأشكال وهيئات متعددة. فهذه الإسهامات قد تأتي في بعض المواضع بشكل صريح ومباشر، أي تظهر في النص من خلال كلمة واحدة أو كلمتين أو حتى جملة صغيرة. وتارة أخرى تكون الإسهامات ذات مغزى إيحائي ودلالي، فتأتي في سياق جملة، أو سطر، أو فقرة، أو حتى صفحة بأكملها.

وهذا لا يعني وجود تنافر أو اختلاف بين كلا الفريقين من الإسهامات، ففي صفحة ما بداخل نص أدبي معين، يمكننا أن نجد سياق تلك الصفحة بأكملها يعبر عن اتجاه دلالي وإيحائي معين، وربما في قراءة نقدية أخرى لهذه الصفحة، وبنمط أكثر تفكيكًا وتحليلًا، نتمكن من حصر وتحديد هوية كل العلوم والمعارف التي أسهمت ولو بكلمة واحدة في بنية وتكوين الصفحة.

مثلًا إذا كان السياق العام لهذه الصفحة يعطي مدلولًا وإيحاءات نفسية صرفة (علم نفس)، فإن هذا لا يتنافى ولا يمنع من تحديد انتماءات الكلمات والعبارات داخل تلك الصفحة، وكل على حدة. فكون تحليلنا لمجمل الصفحة على أنها نفسية، هذا لا يلغي إمكانية تحليل كلمات هذه الصفحة وبشكل دقيق، فلا مانع في هكذا صفحة نفسية، من وجود كلمات سياسية، واجتماعية، وفلسفية، وجغرافية، ودينية، ولغوية، وبيئية، وهكذا.

الإسهامات التي تأتي صريحة ومباشرة وتظهر في النص من خلال كلمة أو كلمتين أو جملة صغيرة، دعونا نسميها (إسهامات بسيطة)، أما الإسهامات التي تأتي بخلاف ذلك، دعونا نسميها (إسهامات معقدة).

وهنا لا بد من تقديم أمثلة توضيحية حول هذه القضية، كي تصبح سائغة للفهم والاستيعاب. لذلك أقدم لكم أمثلة على الإسهامات (البسيطة)، والإسهامات (المعقدة)، والأمثلة هي عبارة عن اقتباسات من رواية (موسم الهجرة إلى الشمال)، أشهر أعمال الروائي السوداني (الطيب صالح)، والذي لقبه النقاد، عبقري الرواية العربية.

أولًا: الإسهامات البسيطة.

إعلانات عن دروس في ركوب الخيل، قطط سيامية زرقاء للبيع. فتاة (١٧ سنة) مهذبة، من عائلة محترمة، تبحث عن عمل، سيدة ورثت لقب ليدي (٣٠ سنة) ترغب في وظيفة في الخارج، أخبار الرياضة. وست هام يهزم بيرهل. وست هام يفوز. جين تني يغلب جاك دمبسي. رسالة من ظفر الله خان يفند فيها آراء سير شانلال ستالفاد بشأن النزاع بين المسلمين والهندوك في البنجاب. رسالة تقول: « الجاز موسيقى مرحة في عالم مظلم «. فيلان وصلا من رانغون أمس، وسارا على الأقدام من مرسى تلبري إلى حديقة الحيوان. مربي أبقار هجم عليه ثور في مزرعته وبقر بطنه. رجل سرق أربع موزات حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات، الأخبار الإمبراطورية والخارجية. عرض جديد من موسكو لتسديد الدين الروسي لفرنسا. فيضانات في سويسرا، الدسكفري سفينة كابتن سكت عادت من البحار الجنوبية. هرسترسمان ألقى خطابًا عن نزع السلاح في جنيف يوم السبت. وأيضًا أدلى هرسترسمان بتصريح لصحيفة « ماتان» أيد فيه خطاب الرئيس فون هندنبرغ في تانبرج الذي رفض فيه أن ألمانيا مسئولة عن نشوب الحرب. المقالة الافتتاحية عن معاهدة جدة التي وقعها سير غلبرت كليتن بالنيابة عن بريطانيا العظمى والأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود نيابة عن أبيه ملك الحجاز ونجد ومحمياتهما. الحالة الجوية في إنجلترا وويلز، الرياح في الغالب بين الغربي والشمال الغربي، قوية أحيانًا في الأماكن المكشوفة، فترات طويلة من الهدوء ولكن مع فترات من العواصف الممطرة وأحيانًا أمطار محلية[1].

في الاقتباس السابق، نشاهد الإسهامات البسيطة للعديد من العلوم والمعارف، وهي تتداخل في بنية النص الأدبي، وتشارك في بنائه بشكل بديع ورائع. يمكننا استخراج تلك الإسهامات من النص، وتفكيكها وتحليلها وتصنيفها وفقًا لنوع العلم أو المعرفة أو الفن الذي جاءت منه، أي على النحو التالي:

(1) الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، طبعة دار العين، القاهرة 2004، ص 135.

١) سياسة: خطاب الرئيس- نشوب الحرب- الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود- ظفر الله خان- ملك الحجاز- فون هندنبرغ- معاهدة جدة- سير غلبرت كليتن- نزع السلاح- هرسترسمان- النزاع- الإمبراطورية.

٢) اقتصاد: تسديد الدين الروسي لفرنسا، تبحث عن عمل- مربي أبقار- مزرعته.

٣) جغرافيا: موسكو- سويسرا- تانبرج- البحار الجنوبية- جنيف- في الخارج- ألمانيا- نجد -بريطانيا العظمى- رانغون- انجلترا- ويلز- مرسى تلبري- البنجاب- الأماكن المكشوفة.

٤) رياضة: ركوب الخيل- وست هام (فريق كرة قدم)- بيرهل (فريق كرة قدم)- جين تني (ملاكم)- جاك دمبسي (ملاكم).

٥) أنثروبولوجيا: فتاه- سيدة- رجل- أبيه.

٦) علم الحيوان: قطط سيامية- حديقة حيوان- ثور- فيلان- أبقار.

٧) علم الاجتماع: عائلة محترمة- تبحث عن عمل- ورثت لقب ليدي- ترغب في وظيفة- النزاع.

٨) صحافة: الأخبار- أخبار الرياضة- المقالة الافتتاحية- صحيفة ماتان.

٩) علمي المناخ والطقس: الحالة الجوية- الرياح- العواصف الممطرة- أمطار محلية- فيضانات.

١٠) دين: المسلمين- الهندوك.

١١) علم الجريمة: سرق.

١٢) قانون: حكم عليه بالسجن.

١٣) رياضيات: أربع.

١٤) موسيقى: الجاز.

١٥) علم النبات: موزات.

١٦) فلسفة: عالم مظلم.

obeikandi.com

ثانيًا: الإسهامات المعقدة.

١) في الاقتباس التالي نجد بصمات علم التاريخ واضحة في سياق النص الأدبي:

« كان أبوه من العبابدة، القبيلة التي تعيش بين مصر والسودان. إنهم الذين هربوا سلاطين باشا من أسر الخليفة عبد الله التعايشي، ثم بعد ذلك عملوا روادًا لجيش كتشنر حين استعاد فتح السودان. ويقال إن أمه كانت رقيقًا من الجنوب. من قبائل الزاندي أو الباريا، الله أعلم. الناس الذين ليس لهم أصل، هم الذين تبوأوا أعلى المراتب أيام الإنجليز»[1].

٢) في الاقتباس التالي نجد بصمات السياسة:

«كل الذي يفلحون فيه يجيئون إلينا مرة كل عامين أو ثلاثة بجماهيرهم ولواريهم ولافتاتهم .. يعيش فلان ويسقط علان. كنا مرتاحين أيام الإنجليز من هذه الدوشة». وبالفعل يمر بنا جمع من الناس في لوري قديم وهم يهتفون: «عاش الحزب الوطني الديمقراطي الاشتراكي». هل هؤلاء الناس هم الذين يطلق عليهم «الفلاحون» في الكتب؟ لو قلت لجدي إن الثورات تصنع باسمه، والحكومات تقوم وتقعد من أجله، لضحك، الفكرة تبدو شاذة فعلا»[2].

٣) في الاقتباس التالي نجد بصمات علم الاجتماع:

«وصل بنا الحديث إلى موضوع الزواج المختلط، وتحول الحديث من نقاش عمومي إلى كلام عن حالات محددة. ثم من هم المتزوجون من أوروبيات؟ ثم من انجليزيات؟ من هو أول سوداني تزوج انجليزية؟ فلان؟ لا. فلان؟ لا. وفجأة .. مصطفى سعيد. قالها الشاب المحاضر في الجامعة،

(1) الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، طبعة دار العين، القاهرة 2004، ص 50 – 51.
(2) نفس الكتاب، ص 60.

obeikandl.com

وعلى وجهه إحساس الفرح ذاته الذي لمحته على وجه المأمور المتقاعد. ومضى الشاب يقول، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم في أوائل فصل الشتاء: «مصطفى سعيد كان أول سوداني تزوج انجليزية، بل إنه كان أول سوداني تزوج أوروبية إطلاقًا. أظن أنكم لم تسمعوا به، فقد نزح من زمن تزوج في انجلترا وتجنس بالجنسية الانجليزية.»[٣].

٤) في الاقتباس التالي نجد بصمات علم الاقتصاد:

« وسمعت منصور يقول لرتشارد: «لقد نقلتم إلينا مرض اقتصادكم الرأسمالي. ماذا أعطيتمونا غير حفنة من الشركات الاستعمارية نزفت دمائنا ولا تزال؟» وقال رتشارد: « كل هذا يدل على أنكم لا تستطيعون الحياة بدوننا، كنتم تشكون من الاستعمار، ولما خرجنا خلقتم أسطورة الاستعمار المستتر. يبدو أن وجودنا، بشكل واضح أو مستتر، ضروري لكم كالماء والهواء»[٤].

٥) في الاقتباس التالي نجد بصمات الأنثروبولوجيا (علم الإنسان):

« ما جنسك؟» هل أنت أفريقي أم آسيوي؟».

قلت لها: «أنا مثل عطيل. عربي أفريقي».

نظرت إلى وجهي وقالت: «نعم. مثل أنوف العرب في الصور. لكن شعرك ليس فاحمًا ناعمًا مثل شعر العرب».

«نعم. هذا أنا وجهي عربي كصحراء الربع الخالي، ورأسي أفريقي يمور بطفولة شريرة»[٥].

---

(3) نفس الكتاب، ص 51 – 52.
(4) نفس الكتاب، ص 56.
(5) نفس الكتاب، ص 37.

obeikandl.com

٦) في الاقتباسين التاليين نجد بصمات الجغرافيا، واضحة:

«ويخرج من السجن، ويتشرد في أصقاع الأرض؛ من باريس إلى كوبنهاجن إلى دلهي إلى بانكوك، وهو يحاول التسويف. وتكون النهاية بعد ذلك في قرية مغمورة الذكر على النيل»[1] «والنهر، النهر الذي لولاه لم تكن بداية ولا نهاية، يجري نحو السأل، لا يلوي على شيء، قد يعترضه جبل فيتجه شرقًا، وقد تصادفه وهدة من الأرض فيتجه غربًا، ولكنه إن عاجلًا أو آجلًا يستقر في مسيره الحتمي ناحية البحر في الشمال»[2].

٧) في الاقتباس التالي نجد بصمات الإيكولوجيا (علم البيئة):

«الحقول نيران ودخان. هذا أوان الاستعداد لزراعة القمح ينظفون الأرض ويجمعون أعواد الذرة والجذوع الصغيرة، ذكريات الموسم الذي انتهى، ويكومونها أكوامًا وسط الحقول ويحرقونها. الأرض سوداء مبسوطة تستعد للحدث القادم. الرجال قاماتهم منحنية على المعاول وبعضهم خلف المحاريث. قمم النخل ترتعش للهواء الخفيف وتسكن، وبخار حار يتصاعد من حقول البرسيم المروية، تحت وطأة الشمس في منتصف النهار ومع كل هبة ريح يفوح أريج الليمون والبرتقال واليوسفندي. خوار ثور أو نهيق حمار أو صوت فأس في الحطب ولكن الدنيا قد تغيرت.»[3].

(1) نفس الكتاب، ص 64.
(2) نفس الكتاب، ص 64.
(3) نفس الكتاب، ص 117 - 118.

obeikandl.com

٨) في الاقتباسين التاليين نجد بصمات شئون وقضايا الدين:

«إيزابيلا سيمور قالت له: «المسيحيون يقولون إن إلههم صلب ليحمل وزر خطاياهم. إنه إذن مات عبثًا. فما يسمونه بالخطيئة ما هو إلا زفرة الاكتفاء بمعانقتك»[٤].

«كفرت بدينها وعبدت إلهًا كعجل بني إسرائيل يا للغرابة. يا للسخرية. الإنسان لمجرد أنه خلق عند خط الإستواء، بعض المجانين يعتبرونه عبدًا وبعضهم يعتبرونه إلهًا، أين الاعتدال؟ أين الإستواء؟»[٥].

٩) في الاقتباس التالي نجد بصمات فني الهندسة والديكور:

«قاعة الاستقلال» التي بنيت لهذا الغرض، وكلفت أكثر من مليون جنيه، صرح من الحجر والأسمنت والرخام والزجاج، مستديرة كاملة الاستدارة، وضع تصميمها في لندن، ردهاتها من رخام أبيض جلب من إيطاليا، وزجاج النوافذ ملون، قطع صغيرة مصفوفة بمهارة في شبكة من خشب التيك، أرضية القاعة مفروشة بسجاجيد عجمية فاخرة، والسقف على شكل قيمة مطلية بماء الذهب، تتدلى من جوانبها شمعدانات كل واحد منها بحجم الجمل العظيم. المنصة حيث تعاقب وزراء التعليم في أفريقيا طوال تسعة أيام من رخام أحمر كالذي في قبر نابليون في الإنفاليد، وسطحها أملس لماع من خشب الأبنوس. على الحيطان لوحات زيتية، وقبالة المدخل خريطة واسعة لأفريقيا من المرمر الملون، كل قطر بلون.»[٦].

---

(4) نفس الكتاب، ص 99 - 100.
(5) نفس الكتاب، ص 100.
(6) نفس الكتاب، ص 109 - 110.

obeikandl.com

١٠) في الاقتباس التالي نجد بصمات الببليوغرافيا:

«والكتب .. على ضوء المصباح أراها مصنفة مرتبة. كتب الاقتصاد والتاريخ والأدب علم الحيوان جيولوجيا. رياضيات. فلك. دائرة المعارف البريطانية. غبون. ماكولي. طوينبي. أعمال برنارد شو كلها كينز. توني. سميث. روبنسن، مقالة عن الاقتصاد الماركسي. علم الاجتماع علم الأجناس. علم النفس. طوماس هاردي. طوماس مان. أي جي مور، طوماس مور، فرجينيا وولف. وتغنشتاين. اينشتاين. برايرلي. ناميير، كتب سمعت بها وكتب لم أسمع بها. دواوين لشعراء لا أعلم بوجودهم. يوميات غردون. رحلات غلفر. كلينغ. هوسمان تاريخ الثورة الفرنسية، طوماس كارلايل. محاضرات عن الثورة الفرنسية، لورد أكتن، كتب مجلدة بالجلد، كتب في أغلفة من الورق كتب قديمة مهلهلة، كتب كأنها خرجت من المطبعة لتوها. مجلدات ضخمة في حجم شواهد القبور. كتب صغيرة مذهبة الحوافي في حجم ورقة الكوتشينة. توقيعات. إهداءات. كتب في صناديق، كتب على الكراسي، كتب على الأرض. أية دعابة هذه؟ ماذا يقصد؟ أوون. فورد. ستيفان زفايغ. أي جي براون. لاسكي. هازلت، أليس في أرض العجائب رتشاردز، القران بالإنجليزية. الإنجيل بالإنجليزية، غلبرت مري أفلاطون اقتصاد الاستعمار، مصطفى سعيد. الاستعمار والاحتكار، مصطفى سعيد. الصليب والبارود، مصطفى سعيد اغتصاب أفريقيا، مصطفى سعيد. بروسبرو وكالبان. الطوطم والتابو، داوتي ..لا يوجد كتاب عربي واحد.»[1].

١١) في الاقتباس التالي نجد بصمات علم الجمال (الأستاطيقا):

« نحن هكذا وهي تطرب للشعر وتطرب للشراب، تسقيني لذاذات الأكاذيب العذبة وأنسج لها خيوطا دقيقة مريعة من الأوهام. تقول لي إنها ترى في عيني لمح السراب في الصحاري الحارة.

(1) نفس الكتاب، ص 123 - 124.

وتسمع في صوتي صرخات الوحوش الكاسرة في الغابات، وأقول لها إنني أرى في زرقة عينها بحور الشمال البعيدة التي ليس لها سواحل. وفي لندن أدخلتها بيتي، وكر الأكاذيب الفادحة، التي بنيتها عن عمد، أكذوبة أكذوبة. الصندل والند وريش النعام وتماثيل العاج والأبنوس والصور والرسوم لغابات النخل على شطان النيل، وقوارب على صفحة الماء أشرعتها كأجنحة الحمام، وشموس تغرب على جبال البحر الأحمر، وقوافل من الجمال تخب السير على كثبان الرمل على حدود اليمن، أشجار التبلدي في كردفان، وفتيات عاريات من قبائل الزاندي والنوير والشلك، حقول الموز والبن في خط الإستواء، والمعابد القديمة في منطقة النوبة، الكتب العربية المزخرفة، الأغلفة مكتوبة بالخط الكوفي المنمق، السجاجيد العجمية والستائر الوردية، والمرايا الكبيرة على الجدران، والأضواء الملونة في الأركان»[٢].

١٢) في الاقتباسين التاليين نجد بصمات الأدب بأنواعه وأجناسه المتعددة:

«ثلاثون عامًا وقاعة ألبرت تغص كل ليلة بعشاق بيتهوفن وباخ، والمطابع تخرج آلاف الكتب في الفن والفكر. مسرحيات برنارد شو تمثل في الرويال كورت والهيماركت. كانت إيدث ستول تغرد بالشعر، ومسرح البرنس أف ويلز يفيض بالشباب والألق»[٣].

«قلت لهم إن عمر الخيام لا يساوي شيئًا إلى جانب أبي نواس، وقرأت لهم من شعر أبي نواس في الخمر بطريقة خطابية مضحكة. زاعمًا لهم أن تلك هي الطريقة التي كان الشعر العربي يلقى بها في العصر العباسي.»[٤].

(2) نفس الكتاب، ص 131 - 132.
(3) نفس الكتاب، ص 35.
(4) نفس الكتاب، ص 128 - 129.

في الاقتباسين الأخيرين، شاركت المعلومات الأدبية كما رأينا في تكوين النص الأدبي. لكن هذا لا يثنيني عن رأيي الذي عبرت عنه من قبل، بأن الأدب لا يشارك البتة في بناء ذاته، وإنما يعتمد كليًا على الإسهامات الوافدة إليه من الخارج، أي من باقي العلوم والمعارف.

وذلك لأن الإسهامات التي تبدو لنا على أنها أدبية، هي في الحقيقة ليست أدبية، لأن مصيرها في النهاية يتفكك، ويذهب إلى العلوم والمعارف والفنون التي جاءت منها !!.

أي أن كلًا من مسرحيات جورج برنارد شو George Bernard Shaw، وروايات دكنز Dickens، وأشعار عمر الخيام وأبي نواس، تتلاشى في النهاية بفعل الممارسات النقدية وآثارها التحليلية، فتتفكك وتذوب إلى أصولها التي جاءت منها، كالتاريخ، والجغرافيا، والسياسة، والاجتماع، وهكذا.

من خلال الأمثلة الشارحة التي قدمناها عن مساهمات العلوم والمعارف المختلفة، في تكوين بنية النص الأدبي، نستنتج حقيقة واضحة لا تحتمل الشك أو الارتياب، وقد سبق وأن تحدثنا عنها. ألا وهي أنني في نظرية (الأدب هو قوس قزح) لم أقارن الأدب بقوس قزح عبثًا، وإنما لوجود ذلك التطابق الكبير بينهما. فكما يتكون قوس قزح من اللون الأحمر، والأزرق، والبرتقالي، والأخضر، وغيرهم. كذلك الأدب يتكون من الاقتصاد، والسياسة، والتاريخ، والإيكولوجيا، والبيولوجيا، والأستاطيقا، والجغرافيا، والفلسفة، وهكذا.

نتعلم من هذه النظرية الفذة، التي توضح أبستمولوجيا الأدب من حيث وجوديته وأصوله وأساساته، أن نمعن التفكير والتأمل في أدق الجزئيات والمسائل مهما صغرت، ونتعلم كذلك ألا نستسلم ونتوقف عند الحدود التي توقفت عندها مدارك علم الآخرين، وتأملاتهم، واجتهاداتهم.

ولولا هذه النظرية الرائعة، لما تتبعنا جذور الظاهرة الأدبية من الناحية التكوينية، ولما توثقنا من الآلية التي يبنى بها الأدب، ولما عرفنا أن أصول الأدب كلها دخيلة، وأن دماء الأدب ضائعة مشتته بين كافة قبائل العلوم والمعارف!!.